البداوة مصدرا للمصطلح النقدي عند حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"

د.كوثر محمود علي عبيد

المقدمة:

يعد حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) من أبرز النقاد العرب القدماء الذين أسهموا في إرساء دعائم نظرية النقد الأدبي عند العرب – إذ استطاع حازم – بتعدد مصادر ثقافته وتنوعّها – أن يقدم عدداً كبيراً من المصطلحات النقدية التي استقاها من تراث العرب النقدي والفني والفلسفي، ومن الفكر اليوناني، إضافة إلى ما كان يجتهد هو نفسه في وضعه وابتكاره.

إن المصطلح عند حازم يشكل ظاهرة لافته للانتباه. تستحق الدرس خصوصا إذ عرفنا أن فهمنا لكثير من القضايا النقدية في منهاجه، يتوقف على فهمنا للمصطلح عنده.

ومن هنا فقد جاءت مهمتي في هذا البحث، لدراسة المصطلحات النقدية البدوية عند حازم في كتابة "المنهاج" ومعرفة مقدار حضور هذه المصطلحات، وكيفية تناوله لها، في فترة قل حضورها في عصر انحطاط وظيفة النقد، فعللت سبب عودة حازم لتوظيف المصطلح البدوي في كتابه، وهو ناقد متحضر لم يعش حياة البداوة أصلاً، وذلك بالرجوع إلى كتابه "المنهاج" ودراسته دراسة متأنية، واستخراج مواطن الاستشهاد، وبيان أثر هذا المصطلح في النقد والشعر العربي، والوقوف على الأسباب التي دعته إلى استحضاره.

بداية، ألقيت الضوء على كتاب "المنهاج" والتعريف به، ومن ثم انتقلت إلى دراسة المصطلحات النقدية البدوية، وبيان دلالتها المرتبطة بالبيئة، وتعليل أسباب رجوعه إلى هذه المصطلحات وتفسير وجودها.

تعريف الكتاب:

يعدّ هذا الكتاب آخر الكتب التي تأثرت بأرسطو تأثراً مباشرا، سواء في كتابيه "الخطابة"، أو "الشعر". وقد نقل فيه نقلا مباشراً عن شرح ابن سينا في الشفاء.

ويقوم منهج الكتاب على مباحث بلاغية في أصول البلاغة وأركانها، والأقوال في المعاني وأقسامها والألفاظ وأقسامها والعبارة وتركيبها، وجوانب الحسن والقبح في القول. والجديد في هذا الكتاب هو أنه عقد فصلاً طويلاً تكلّم فيه عن نظريّة أرسطو في الشعر والبلاغة، ويغلب عليه البحث النظري الفلسفي، واعتماده على الشواهد قليل(١).

يقسم الكتاب إلى مناهج، والمنهج إلى فصول أو فقر طويلة يسميها على التوالي: معلم، إضاءة، تنوير، أو معرّف، إضاءة ... وتتوالى الإضاءة فالتنوير داخل المعلم أو المعرّف الواحد ... وهي تنويعات في تسمية الأقسام(٢)؛ ربما تعود إلى تأثر حازم بالتقسيم المنطقي والثقافة اليونانية.

ويفسّر إحسان عبّاس كثرة التّفريعات والتّقسيمات في المنهاج بقوله: "المنهج هو الطّريق الواسعة ولذلك كان كلّ فصل بهذا العنوان (في الإبانة عن ماهيّته) وعلى طول هذا الطريق "معلم" أي إشارة تدل على "طريق العلم" ومعرّف أي إشارة تدل على "معرفة" والفرق بين الاثنين أن العلم يومئ إلى القواعد التي تستند إلى شؤون الذهن والقواعد المتصلة بالتفريعات المنطقية وأن المعرف يدل في الغالب على التقديرات النفسيّة، أما "المأم" فانه يدل على مذهب يفضي إلى غاية أو مقصد وهذه المصطلحات الثلاثة متصلة من عنوان بلفظة "منهاج البلغاء"(٣).

المصطلحات النقدية البدوية في "المنهاج"

إنّ القارئ لكتاب حازم القرطاجني "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" يدرك أنه أمام مصطلحات نقدية بدوية، تأثر في توظيفها بالتراث العربي النقدي البدوي الأصيل، وهذه المصطلحات لها علاقة وثيقة بالبيئة البدوية التي نشأت فيها.

والمتتبع لـ "المنهاج" يجد حضور العديد من المصطلحات النقدية البدوية فيه، فقد استعمل حازم:-

١. الارتجال:

- في اللغة:

ارتجل الرجل ارتجالا إذا ركب رجليه في حاجته ومضى، وارتجال الخطبة والشعر ابتداؤه من غير سيئة(٤).

- في النقد:

"هو سمة من سمات العرب، وخصلة من خصالهم كما يتضح من قول الجاحظ: "وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنّه إلهام". وهذا يعني أن الارتجال يشمل الشعر والخطابة وغيرهما"(٥).

- عند حازم:

"عدم إعمال الروية في الكلام، وإرسال القول على كواهنه"(٦) والقول الارتجالي عنده أما أن يذكر صفات الشيء وبعض لوازمه التي توضّح كنهه وماهيته أو لا يذكر، والأفضل هو الصنف الأول من القول الذي يسميه حازم مستقصى مقترن(٧).

فحازم وظّف مصطلح الارتجال بمعناه اللغوي، وهو إرسال القول دون تهيئة، وإذا ربطناه بالمعنى اللغوي الأول وهو سير الرّجل على رجليه في حاجته، وجدنا أن كلا المعنيين يعتمد على ذاته دون روية أو وساطة، وهذا يعكس بساطة حياة البداوة.

٢. التّحجيل:

- في اللغة:

هو "البياض الذي يكون في قوائم الفرس، واختلف فيه فقيل هو البياض في قوائم الفرس كلها، أو في ثلاث منهن دون الأخرى أو في إحدى رجليه، ولا يكون التّحجيل في اليدين خاصة إلا مع الرجلين"(٨).

- في العروض:

"ما نتج قافية البيت عن عروضه وأبيات عجزه بغية قائله"(٩)؛ أي أن البيت لا يفهم معناه فقط بصدرة، وإنما لابد من ذكر عجزه أيضاً حتى يتم المعنى.

- عند حازم:

فهو تذييل أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية. ويأتي التّحجيل كنتيجة لمجموعة من المعاني التي تتقدمه فيكون بمثابة الاستدلال أو التمثيل على ما سبق، وينحى منحى التصديق أو الإقناع ويقصد به إعطاء حكم كليّ على جملة ما انصرفت إليه أجزاء الفصل، كما ينبغي أن يكون اللفظ والتركيب سهلا وجزلاً، وتورد القافية فتمكنه، كما ينبغي عدم الاستكثار من هذا الفن لأنه يؤدي إلى التكلف وسآمة النفس(١٠).

يتبين من تعريف حازم للتّحجيل توافقه مع المعنى اللغوي، فالتّحجيل يكون في نهاية أقدام الفرس، وكذلك أبيات الحكمة تكون في نهاية الفصل من القصيدة، ولكنه يختلف مع ثعلب في مفهوم الأبيات المحجلة، فهي عند الأول أبيات الحكمة والاستدلال، وعند الثاني الأبيات التي لا يفهم معناها إلا بذكر العجز.

٣. التّسويم:

- في اللغة:

السّيمة، والسيّماء والسّيمياء وهي العلامة ويسوّم الفرس جعل عليها السّيمة أي العلامة والتّسويم الفرس التي في رجلها ويدها بقعة بيضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾(١١).

- عند حازم:

"هو أن يعلم على الشيء ويجعل له سيمى يتميز بها"(١٢).

فمعنى التسويم عند حازم والمعنى اللغوي له واحد، وهذا ما صرح به قائلا: "ولما كان اعتماد ذلك في رؤوس الفصول ووجودها إعلاماً عليها، وإعلاماً بمغزى الشاعر فيها، وكان لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة وازديان، حتى كأنها بذلك ذوات غرر، رأيت أن اسمي ذلك بالتّسويم وهو أن يعلم على الشيء وتجعل له سيمى يتميز بها وقد كثر استعمال ذلك الشيء في الوجوه والغرر كما قال ابن الرومي:

سَمَا سَمْوَةً نَحْوَ السَّماء بغُرَّة
مُسَوَّمة قدما بسيَمى سُجُودها (١٣)

فقد عاد حازم إلى مصطلحين مستقين من صفات الخيل وهما "التسويم" و" التّحجيل" فالتسويم في الفواتح، والتحجيل في الخواتيم(١٤).ولكن قد يتداخل المصطلحان، وهنا يحرص حازم ألا يختل التناسب وأن يستمر اطراد الفصول وتتابعها على أساس منطقي يجعل من الوحدة تشكيلا عقليا صارما لا مجال فيه للتهويم أو التداخل، أو حتى العلاقات الداخليّة المتجاوبة الأبعاد وقد يسمح التشكيل العقلي للوحدة بقدر من التنوع، لكنه التنوع الذي لا يفارقه الاطراد

والتتابع الذي يمضي إلى تسلسل العناصر في إطار موحد على المستوى المنطقي(١٥).

ومن الجدير بالذكر أن حازماً كان متاثرا بالمصطلحات النقدية البدوية عند ابي العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ)، في كتابه (قواعد الشعر) التي كانت ثقافته البدوية قد ترسخت في نفسه من خلال تعامله مع اللغة والنحو واشتغاله بهما.

كما نلحظ أن مصطلحاته مستمدة من الخيل حيث جعل الأبيات غراء ومحجلة ومرجلة.

٤. الإذالة:

- في اللغة:

من الإذالة وهي الإهانة، الإذالة أيضاً الزيادة في نهاية القميص(١٦).

- عند حازم:

"التذييل ساكن قبل آخر حرف من جزء الضرب، ويسمى أيضاً اسباغا"(١٧).

والجامع بين المعنيين واحد، وهو الزيادة، حيث كانت العرب تعد الزيادة في الثوب ترفاً.

٥. التّرصيع:

- في اللغة:

من رصع الشيء، أي عقده مثلثا متداخلا كعقد التميمة ونحوها، والتّرصيع: التركيب، وسيف مرصع: محلى بالرصائع(١٨).

- في النقد:

من نعوت الوزن عند قدامة، "وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف(١٩).

- عند حازم:

استخدمه بالمعنى نفسه، فهو عنده "من أسماء الصناعات التي هي تنميقات في المصنوعات، وكذلك التوشيح والتسهيم"(٢٠).

٦. التّسهيم:

- في اللغة:

من سهم، والمسهم: البرد المخطط يصدر على شكل السهام(٢١).

"هو أن تعلم القافية لما يدل عليه الكلام في أول البيت، مثل قول أبي حية:

إذا ما تقاضى المرء يوما وليلة
تقاضاه شيءٌ لا يملّ التقاضيا "(٢٢)

- عند حازم:

"ضرب من ضروب البديع يقرب من التصوير، وهو أن يكون ما تقدم من الكلام دليلا لفظيا على ما يتأخر منه أو العكس"(٢٣).

ويوضح قوله: "فالنفوس تتخيل بما يخيّل لها الشاعر من ذلك محاسن ضروب الزينة فتبتهج لذلك، لهذا نقلوا الهيئات اللفظية التي من هذا القبيل، أسماء الصناعات التي هي تنميقات في المصنوعات فقالوا الترصيع، والترشيح، والتسهيم من سهيم البرود"(٢٤).

والبرد المسهم هو: المخطط وهو الذي يدل احد سهامه على الذي يليه، لكونه لونه يقتضيه أن يليه لون مخصوص بمجاورة الذي قبله أو بعده منه"(٢٥).

ومما تقدم يتبين لنا أن السهام في البرد المسهم" يدل كل منها على السهم الذي يليه والأمر نفسه نجده في الكلام، فالذي يتقدم يدل على ما يتأخر.

٧. التلويح:

- في اللغة:

من ألاح السيف ولوح به أي لمع به وحركه، ولاح النجم: بدا (٢٦).

- في النقد:

ذكره الجاحظ كأحد أنواع الدلالة، وكذلك فعل ابن جني في خصائصه، مثلما عقد ابن رشيق باباً للإشارة(٢٧).

- عند حازم:

"سبب من أسباب الغموض إضافة إلى أسباب أخرى نحو تضمين الكلام معنى علميا أو خبرا تاريخيا"(٢٨). كما يعني أيضاً "الإشارة إلى المعنى المراد بنوع من أنواع التشبيه، كقول أبي نواس:

كأنَ بقايا ما عفا عن حَبابها
تفاريقُ شيبٍ في سواد عذارِ
ترَدت ثم انفرى عن أديمها
تفرّي ليلٍ عن بياض نهارِ

فقد أراد أبو نواس أن يشبه سواد الخمر بالليل الحباب بالنجوم، فلم يتسع له الكلام بهذا التشبيه، فلوح له في البيت الثاني تلويحا لطيفا، بقوله: ما تردت له من لون السواد وما اقترن به من الحَباب تفري الليل ونجومه عن بياض النهار"(٢٩).

فالتلويح عند حازم يعني الإشارة إلى وجود شيء محسوسا كالسيف، أو غير محسوس كالمعنى.

٨. الجَعد والبسط :

- في اللغة :

الجعد من الشعر خلاف البسط، الجعد من الرجال المجتمع بعضه إلى بعضه"(٣٠)، والبسط من الشعر المسترسل، والبسط هو الممتد الذي ليس فيه تعقد ولا نتوء(٣١).

- عند حازم:

الجعد" وصف يلحق الوزن الشعري الذي تتوالى فيه أربع سواكن من جزأين أو ثلاثة من جزء، والمقصود بالتوالي أن لا يكون بين ساكن وأخر إلا حركة، والبسط: وصف يلحق الوزن الشعري الذي تتوالى فيه ثلاث متحركات"(٣٢).

فاستعار حازم صفتي البسط والجعودة من الشعر ليجعلهما للأوزان الشعرية.

٩. الكزّ:

- في اللغة :

"الذي لا ينبسط"(٣٣).

- عند حازم:

الكزازة وصف يلحق البحر الشعري إذا ائتلف من أجزاء تكثر فيها السواكن مثل السريع والرجز، ويرادف مصطلح الكزازة مصطلح التوعر، ويقابله البسط والطلاوة والسهولة، وتتوافر الصفات الأخيرة في البحر والبسيط والمتقارب(٣٤).

ونجد ورود مصطلح الكزازة وبنفس المعنى عند "أبي هلال العسكري" عندما تحدث عن ضرورة تمكن الشاعر من الوزن بعد تمكينه من المعنى، فقال: "ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سهلا ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك كزاً، فجا، ومتجعداً جلفاً"(٣٥).

١٠. الخَزَم:

- في اللغة :

خَزَم الشيء يخزمه خزما: شكه، والخَزامة برة وهي حلقة تجعل في أحد جانبي منخزي البعير، وقبل حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه يشد بها الزمام (٣٦).

- في العروض

"زيادة في أول البيت لا يقيد بها في التقطيع"(٣٧).

- عند حازم:

"الزيادة في أول البيت ولا تكون من فنون الأوزان وإنما توطئات وتمهيدات ووصلا لإنشاء البيوت وبناء عباراتها عليها"(٣٨).

وهكذا يكون المعنى المشترك بين المعنى اللغوي للمصطلح والمعنى الذي يوظفه حازم هو الزيادة، زيادة توضع على منخار البعير، وزيادة توضع في أول البيت.

١١. الفحولة :

- في اللغة :

الذكر من كل حيوان (٣٩).

- في النقد:

"سأل ابو حاتم أستاذه الأصمعي: ما الفحل؟ فأجاب من له مزية عن غيره من الشعراء كمزية الفحل على الحقاق"(٤٠).

- عند حازم:

"هم الذين قاموا بتأصيل مبادئ الكلام وأحكام وصعه وانتقاء مواده التي يجب نحته منها، ومن لم يأخذ بهذه الصفة فقد خرج عن مَهيع الشعر ودخل في محض التكلم"(٤١).

ومصطلح الفحولة الذي اختاره الأصمعي ربما لم يكن هو أول من استعمله مستمداً من طبيعة حيوان الصحراء وخاصة الجمل قبل أن يكون مستمداً من حقيقة التمايز بين الرجال في هذه الصفة(٤٢).

١٢. الرّكن:

- في اللغة :

"جمعه أركان، وأركان كل شيء جوانبه التي يستند إليها ويقوم لها"(٤٣).

- في الموسيقى:

عند ابن سينا البيت من الشعر(٤٤).

- عند حازم:

الركن من بيت الشعر زاويته، ويطلقه على "الساكن الفاصل بين المتحرك في القافية وفي غيرها من أجزاء البيت"(٤٥).

والركن في البيت الشعري يعمل عمل الركن في بيت الشَّعر.

١٣. حوافر الشِّعر:

- في اللغة :

"الحافر من الدوران يكون للخيل والدواب، وعليها وقوف الفرس وقوامه"(٤٦).

- عند حازم:

يورد حازم حديثه عن هذا المصطلح منقولا عن بعض العرب، قائلاً: قال بعض العرب لبنيه: اطلبوا الرماح فإنها قرون الخيل، وأجيدوا القوافي فإنها حوافر الشِّعر أي عليها جريانه واطراده، وهي موافقة، فإن صحت استقامت جريته، وحسنت مواقفه ونهايته"(٤٧).

والقافية أصلاً هي "الحرف الذي يجيء في آخر البيت وعدة أصوات تتكرر في أواخر الأبيات من القصيدة"(٤٨).

١٤. الوتـد:

- في اللغة:

مازر في الحائط وفي الأرض من الخشب، والجمع أوتاد (٤٩).

- في العروض:

الشعر كله مركب من سبب ووتد وفاصلة... والوتد وتدان: مجموع ومفروق.

- عند حازم:

ورد المصطلح بمعناه المعروف، وبقسمين أيضاً، وبإضافة قسم جديد هو: (الوتد: (المتضاعف)، وهو وتد مجموع (لقد) زيد عليه ساكن ثان نحو (مَقال) (٥٠). وسماه أيضاً (الوتد المجموع المتضاعف) (٥١).

ويوضح حازم الأصل البدوي لمصطلح الوتد، وهو بيت الشعر (الخباء) (٥٢) كما ناقش الخليل في مصطلحي السبب والوتد فقال: "جعل الخليل الضروريات من السواكن أوتادا، وجعل غير الضرورية أسبابا، والأحسن أن يقال أن هذه وتلك أوتاد، لكن ثبات أحداهما ضروري في حفظ بنية البيت، فهو بمنزلة الوتد الذي لابد منه في الخباء"(٥٣). كأن نقول : مفاعيلن، فهي تتركب من وتد مجموع، وسببين، حفيفين يمكن أن نستغني عن احدهما (عِيْ) أو (لن)، أما (مفا) فلا يمكن.

١٥. الكسر:

- في اللغة:

الكسرة: القِطعَة المكسورة من الشيء، والكَسْر والكِسْر: الجزء من العضو"(٥٤).

- عند حازم:

الكسر مصطلح عروضي مأخوذ (من كسور بيت الشعر) (٥٥) ويقصد به "جانب البيت"(٥٦).

١٦. الجزالة:

- في اللغة:

الجزل: الحطب اليابس: وقيل: الغليظ. ورجل جزل الرأي وامرأة جزلة: بينة الجزالة، جيدة الرأي. واللفظ الجزل خلاف الركيك(٥٧).

- في النقد القديم:

ورد مصطلح الجزالة عند ابن سلام(٥٨)، وجعله الجاحظ نقيضا للسخيف(٥٩)، ومساويا للفخم(٦٠).

أما ثعلب. فقال في باب (الجزالة في الشعر): فأما جزالة اللفظ فما لم يكن بالمغرب البدوي، ولا السفساف العامي، ولكن ما اشتد أسره، وسهل لفظه، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه، وتوهم إمكانه"(٦١).

- عند حازم:

(الجزالة) و (الطلاوة) و (الاستيعاب) من التهدى إلى العبارات الحسنة، "والجزالة تكون بشدة التطالب بين كلمة وما يجاورها بتقارب أنماط الكلم في الاستعمال"(٦٢).

وهذا مما يتعلق بنظام الجمل، والقصيدة ككل، وليس بالألفاظ المفردة حسب، وهذا المصطلح – بهذا المفهوم- من أوضح الإشارات إلى قضية التجانس اللغوي، والوحدة الخارجية للقصيدة.

١٧. إلغـاز:

- في اللغة:

ألغز الكلام وألغز فيه: عمّى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره، واللغز: ما ألغز من الكلام، وهو الكلام الملبس(٦٣).

- في النقد:

عقد الجاحظ بابا في "اللغز في الجواب" ومثل له بسؤال رجل للحطيئة وهو يرعى غنما: "ما عندك؟ قال: عجراء من سلم. يعني عصاه"(٦٤).

- عند حازم:

إغماض المعاني وما وقع بها كناية وتعمية(٦٥)، وإذا حصل هذا الإلغاز، فانه يستحب أن يذكر الشاعر ما يميط ذلك والإلغاز "قبح في الكلام"(٦٦).

١٨. الاقتصاص:

- في اللغة:

قصّ الأثر بقصة قصّا: تتبعه، وقبل: القاص يقصّ القصص لإتباعه خبرا بعد خبر، وسوقه الكلام سوقا(٦٧).

- في النقد:

اقتصاص الإخبار عند ثعلب من فنون الشعر(٦٨) كقول الأسود ابن يعفر:

جرت الرياحُ على محلّ ديارِهم
فكأنهم كانوا على ميعادِ (٦٩)

- عند حازم:

"كل كلام يحتمل الصدق والكذب إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال"(٧٠)، فالاقتصاص يعني قصّ الإخبار لمجرد القص دون أن يقصد الشاعر إثبات حكم أو إبطاله. وهو مطرد عنده(٧١).

١٩. أسماط الدهور :

- في اللغة:

"سمط الشيء سمطا: علّقه(٧٢)، والشيء المعلّق يكون من الشهرة، يمكن بحيث لا يخفى.

- في النقد:

وصفت العرب بعض القصائد بأنها (أسماط الدهور)، منها قصيدة علقمة بن عبدة الفحل(٧٣):

طحابك قلبٌ في الحسان طروبُ
بُعيد الشباب عصر حان مشيب

وذكر صاحب جمهرة العرب (أصحاب السموط)(٧٤) وهم أصحاب المعلقات، قال المفضل عنهم: "هؤلاء أصحاب السبعة الطوال التي تسميها العرب السموط"(٧٥).

- عند حازم:

هي تسمية أطلقها العرب على بعض القصائد، فالعرب "كانت تستغني في قولها الشعر الذي هو بالحقيقة شعر، ونظمها القصائد التي كانت تسميها أسماط الدهور عن التعليم والإرشاد إلى كيفيات المباني التي يجب أن يوضع عليها الكلام"(٧٦).

ومن اللافت للانتباه أن للبيئة البدوية التي كان يعيشها العرب في ذلك الوقت أثراً كبيرا على المصطلح، فنجد أن مجمل مصطلح الخليل العروضي مستمد من بيت الشعر، مما يدل على انتخابه الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية.

فقد ربط الخليل مصطلح العروض ربطاً وثيقا بين الشعر وبيت الشَّعر (البيت، الوتد، السبب، الإيطاء، ...) (٧٧).

أي أن خلاصة موقف الخليل أن الشعر ولد في البداوة، ولهذا فإنه صورة للكيان البدوي، ومصطلحه يمكن أن يؤخذ من ذلك الكيان، وهذه الفكرة قد أطنب حازم من بعد في تحليلها والإفادة منها في فهم العلاقة بين الشعر وطبيعة البيت البدوي(٧٨).

لم تكن ملاحظة حازم على علاقة المصطلح العروضي بالبيئة من استنتاجه وإنما صرح بذلك الخليل نفسه حينما سأل الأخفش عن سبب تسمية الرجز"قال:لاضطرابه كاضطراب الناقة عند القيام ..." (٧٩).

ولم يستطع المصطلح النقدي في بداياته أن يخترق حاجز البيئة فتلون بلونها وحمل رائحتها وخير مثال على ذلك مصطلح "الفحولة " ونظروا إلي الفحل من الإبل فوجدوا أنه متقدم على غيره من النوق فراق لهم أن يربطوا بينه وبين الشاعر المتقدم على غيره من الشعراء لا سيما وأن الإبل لها تأثيرات واضحة على حياة البدوي صورها من خلال شعره ونثره .ويدخل المصطلح في أزمة شديدة حينما يرمي به ثعلب في أحضان البيئة بطريقة تكتظ بالفوضى والسطحية خلافا لما يشير إليه عنوان كتابه "قواعد الشعر" فقد قسم ثعلب الشعر إلي أبيات غر ومحجلة وموضحة ومرجلة(٨٠) وكلها من صفات الخيل بيد أنه أحس منذ البداية أن طرحه لمثل هذه المصطلحات سوف يسبب إشكالا في الفهم انبرى الي تعريفها وشرحها وتطبيقها على بعض الأبيات الشعرية ولكن على الرغم من ذلك بقي الإشكال قائما لأنه ضرب قيدا حديدا على الشعراء والنقاد كان من نتيجته جمود تلك المصطلحات وعدم تطورها على العصور.

وعمود الشعر على الرغم من مرونته وتطوره عبر الحقب وتذبذبه بين الثبوت والتغير أذعن لسلطان البيئة منذ نشأته فهو مأخوذ من عمود الخباء أو الخيمة وهي ما تقوم عليه وعمود كل شيء ما يقوم به(٨١) وقد انعكس هذا التعريف على مفهوم النقاد فذهبوا يلتمسون ما هو أصل في القصيدة وما هو خارج عنها أو بالاحرى ما تقوم عليه القصيدة ولا ينهض إلا بها .

وفي الواقع أن للبيئة لم تستطع أن تساير التطور الثقافي والاجتماعي الذي عاشه النقاد في إبان الحضارة العربية التي ابتعدت قليلا أو كثيرا عن حياة البادية فكانت هناك فجوة بين المصطلح البدوي وذوق الناقد الذي لم يذق طعم البداوة وحياتها ،إضافة إلى تطور القصيدة في شكلها ومضمونها وما تحمله من زخم ثقافي وعمق فلسفي مما جعل

الناقد يلهث في التوفيق بين المصطلح وكيان القصيدة وقد تمخض عن ذلك عدة قضايا نقدية كبيرة مثل المقدمة الطللية والقديم والجديد وغير ذلك.

فالتفت الناقد المتحضر إلي بيئته لعلها تسعفه بما يحل أزمته فنشأت عدة مصطلحات إلى البلاغة أقرب منها النقد مثل الترصيع والتسهيم والتطريز والتوشيح وغيرها فاتسعت دائرة المصطلح واقترب من التنظير مزورا عن التطبيق لئلا تتسع الفجوة ويظهر التشويش والارتباك. ولكن يبدو أن سلطة المصطلح البدوي لاحقت النقاد إلى فترة متأخرة حتى إننا نجد حازم القرطاجني في القرن السابع الهجري يتخذ مصطلحين مستمدين من الفرس وهما "التسويم والتحجيل "فكأنه يعود بنا إلى ما فعله ثعلب في القرن الثالث الهجري(٨٢).

البداوة عند حازم القرطاجني: لماذا عاد حازم إلى توظيف المصطلح النقدي البدوي في منهاجه؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، لابد لي من إلقاء الضوء على الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية التي عاشها حازم في القرن السابع الهجري، فلا شك أن حازم عاش في هذا القرن، وهو عصر انحطاط الشعر والنقد، إضافة إلى ما كان يعانيه هذا العصر. من ظروف سياسية سيئة "حيث سقطت قاعدة الأمويين في الأندلس بيد النصارى (٦٣٣هـ)، واحتل الأسبان قرطبة، وتوالت الفتن والمحن، فسقطت مدينة بلنسية (٦٣٦هـ) وغيرها(٨٣).

والحقيقة، إن حازم كان يعاني من فوضى القيم واضطرابها في عصر اهتز فيه كل شيء وانهار ما فيه من أصالة، وضاع فيه الكثير بما في ذلك الأندلس(٨٤).

وقد تنبه حازم لما جره فساد الذوق من ويلات على الأدب ونقده(٨٥).

فلا نعجب من ارتفاع نبرة الشكوى عنده، ولا نستغرب من مسحة التشاؤم لديه، والشعراء كانوا الأكثر إحساساً بهذه الأزمة النقدية، وكان حازم شاعراً أيضاً، ولكن هذا كله لم يمنعه "من أن يكون مخلصا في رسم منهجه النقدي"(٨٦)، وأن يسير في الطريق وحيداً، غير آبهٍ لما يعرض من سوق الأدب من بضاعة رائجة على الرغم من فسادها، إذ أصبحت النظرة إلى الشعراء تقاس بقدرة إجادتهم للبديع، فهذه صورة جلية لانحطاط وظيفة النقد، وغايته وهو ما لم يرضِ حازماً بحال من الأحوال، وهذا ـــ في رأيي ـــ ما أصّل في نفسه نزعة واضحة لنقد النقد، فنجده ينقد البلاغيين والعروض والنقاد المتكلمين(٨٧).

ويبدو، أيضاً، أن عصر حازم لم يكن عصر احتراق نقدي وبلاغي فقط، وإنما عصر احتراق شعري، كذلك فلم يجد من شعراء المحدثين، ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وأحكام وضعه، وانتقاء مواده(٨٨).

وهذا ما زاد من ألم حازم، وينكأ جراحه، إذ بات وقد أضافه همان، فلا الناقد يفهم من النقد، ولا الشاعر يفهم من الشعر.

يقول حازم في ظل هذه الظروف القائمة التي طمست حقيقة الشعر، والتي انعكست سلبا على ذوق المتلقي لأن الطباع قد تداخلها من الاختلال والفساد إضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن، فهي تستجيد الفن وتستغث الجيد من الكلام ما لم تقمع بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية(٨٩).

فهنا يشير حازم إلى رداءة وضع الشعر في عصره وأرجع أسباب ذلك إلى اختلال مفهوم الشعر لدى الشعراء، وظهور مفهوم مغلوط لعلم البلاغة، والأدهى من ذلك، ظهور طائفة من المدعيين للشعر، ولاحظ لهم من صناعته .

لذلك يرى حازم أن الدواء الوحيد لهذا الداء يكمن في العودة إلى طريقة الفحول وتقاليدهم الفنية، وليس هذا تعصباً وإنما هو حرص على ماضٍ شعري مجيد لمواجهة حاضر شعري متخلف(٩٠).

فنجد إصرار حازم البين على استعمال ألفاظ ومصطلحات تعود بنا إلى طبيعة الحياة البدوية الأصيلة، ربما يعود ذلك إلى ضياع الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وضياع النتاج الفكري والثقافي العربي فيها، بسبب الحروب، الأمر الذي أدى بالصليبين إلى تضييق الحصار على اللغة العربية والعمل على طمس معالمها.

ويرى إحسان عباس أن حازما أراد أن يصلح حركة النقد العربي ونظريته"(٩١).

إن ثقافة حازم المتنوعة، انعكست على مصطلحات نفسها، فكانت عاملاً من عوامل تنويع جوانب نقده وتكامله واهم هذه المنابع هي المنابع العربية التي تشمل البلاغية والنقدية والحضارية والدينية.

فأما المنابع البلاغية، فهي ضاربة في عمق تاريخها الأدبي، إذ يعود حازم إلى

تعبيرات اصطلاحية مبكرة جداً في النقد والبلاغة العربيين، ويأخذ عن إعلامهما الأوائل، كالخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) الذي نقل عنه في غير موضع، فاستشهد ليدلل على العلاقة بين المعنى النحوي الاصطلاحي للمطابقة(٩٢) وفي الحديث عن (الضرورة) (٩٣) كما ناقشه في تسميته (الأوتاد والأسباب)(٩٤) وفي تفعيلات الشعر.

كما أن إيمان حازم بحضارته العربية في جذورها البدوية، شكل له رافداً مهماً من روافد المصطلحية فثمة عدد غير قليل من مصطلحات يرجعه إلى صور مادية من بيئة الإعراب وحضارتهم الفنية والصناعة البسيطة بمختلف جوانبها.

وهذا جلي في قوله: "ولما قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية ونظام أوزانها متنزلة في إدراك السمع منزلة وضع البيوت وترتيباتها في إدراك البصر تأملوا البيوت فوجدوا لها كسوراً وأركاناً وأقطاراً وأعمدة وأسباباً وأوتاداً ... وجعلوا الوضع الذي يبنى عليه منتهى شطر البيت وينقسم البيت عنده نصفين بمنزلة عمود البيت الموضوع وسطه، وجعلوا القافية بمنزلة تحصين منتهى الخباء والبيت في أخرهما تحسينه من ظاهر وباطن ...." (٩٥).

فربما وجد حازم القرطاجني في المصطلحات البدوية من دقة التعبير والإشارة إلى المعنى المراد ما لم يجده في مصطلحات أخرى، وهو يريد من خلالها التأصيل لقواعد وأسس نقدية للفن الشعري.

فجاءت عودة حازم إلى توظيف المصطلح البدوي ثورة على انحطاط المستوى الفكري والثقافي الذي لا يمكن تجاوزه إلا بالعودة إلى مناهل العربية الأولى، إلى البداوة، وإيذاناً لعرب الأندلس، الذين كانوا يواجهون محاولات طمس الهوية العربية، لذلك الخطر المحدق بهم، ودفعهم للمحافظة على الهوية العربية فوجد في لغة البداوة اللغة العربية الأصيلة السبيل الوحيد لتحقيق ذلك المطلب.

الخاتمة:

إن دراسة المصطلح النقدي البدوي تفتح الأفاق على وجود أثر للبيئة البدوية عن الذين استخدموا هذا المصطلح. وهذا ليس غريباً على العربي فهو ابن هذه البيئة، وشعره القديم نابع منها بارتباطها الوثيق بها في شتى ظروف حياته.

لقد أظهرت هذه الدراسة وجود مصطلحات نقدية بدوية في كتاب حازم القرطاجني "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، وهي مصطلحات بدوية صريحة مرتبطة أشد الارتباط بالبيئة البدوية واستعمالات اللغة لها، وقد تم ذكر بعض هذه المصطلحات الموجودة في الكتاب وبيات دلالتها اللغوية والاصطلاحية والنقدية المرتبطة بالبيئة البدوية.

كما توصلت هذه الدراسة إلى أسباب رجوع حازم القرطاجني إلى المصطلح النقدي البدوي وهي أسباب مرتبطة بالبيئة البدوية وخاصة فيما يتعلق بالمصطلح العروض "كالبيت والوتد، ...." التي استطاع حازم أن يوفق بين هذه المصطلحات بمعناها اللغوي والاصطلاحي وكيان القصيدة العربية.

وأبانت الدراسة عن وجود صعوبة في تحديد المصطلح النقدي البدوي وبيان مدلولاته؛ ذلك أن ما يتحكم في هذا المصطلح البيئة التي وجد فيها، فهو في منطقة يختلف عنه في منطقة أخرى، فقد يكون المصطلح بدوياً في منطقة وحضرياً في منطقة أخرى.

الهوامش:-

١) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد العربي، الإسكندرية، دار المعارف، ص ١٩٤.

٢) المرجع السابق، ص ١٩٤.

٣) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن، عمان، دار الشروق، ٢٠٠١، ص ٥٨١.

٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة رجل.

٥) عبد الحليم عباس: المصطلح النقدي عند حازم القرطاجني، جامعة اليرموك، ١٩٩١، رسالة ماجستير، ص ٦٤.

٦) القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن خوجه، دار الكتب الشرقية، ١٩٩٦، ص ٤٠٤.

٧) المصدر السابق، ص ٢١٣.

٨) لسان العرب، مادة حجل.

٩) ثعلب، ابو العباس أحمد: قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٥، ص ١٨.

١٠) المنهاج، ص ٣٠٠-٣٠٢.

١١) لسان العرب، مادة سوم.

١٢) المنهاج، ص ٢٩٧.

١٣) المنهاج، ص ٢٩٧.

١٤) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٥٧.

١٥) جابر عصفور: مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي"، المركز العربي للثقافة والعلوم، ١٩٨٢م، ص ٤٦٨.

١٦) لسان العرب، مادة ذيل.

١٧) المنهاج، ص ٢٤٤.

١٨) لسان العرب، مادة رصع.

١٩) أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٩٦، ص ٣٠٦.

٢٠) المنهاج، ص ٩٤.

٢١) لسان العرب، مادة سهم.

٢٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص ١٦٠.

٢٣) المنهاج، ص ٤٠٧.

٢٤) المنهاج، ص ٦٤.

٢٥) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص ٤٠٧.

٢٦) لسان العرب، مادة لوح.

٢٧) عباس عبد الحليم: المصطلح النقدي عند حازم القرطاجني، ص ٢٠٣.

٢٨) المنهاج، ص ١٧٣.

٢٩) المنهاج، ص ١٤٢.

٣٠) لسان العرب، مادة جعد.

٣١) المصدر السابق، مادة بسط.

٣٢) المنهاج، ص ٢٦٠.

٣٣) لسان العرب، مادة كزز.

٣٤) المنهاج، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٣٥) المنهاج، ص ٣١٦.

٣٦) لسان العرب، مادة خزم.

٣٧) المنهاج،ص٢٦٣

٣٨) المنهاج، ص٢٦٣.

٣٩) لسان العرب، مادة فحل.

٤٠) المنهاج، ص ١٠.

٤١) المنهاج، ص ١٠.

٤٢) تاريخ النقد العربي، ص ٦٦٠.

٤٣) لسان العرب، مادة ركن، ص ٢٥٧.

٤٤) عبد الحليم عباس، المصطلحات النقدية عند حازم، ص ٢٥٧.

٤٥) المنهاج، ص ١٠٥.

٤٦) لسان العرب، مادة حفر.

٤٧) المنهاج، ص ٢٧١.

٤٨) يوسف بكار: في العروض والقافية، لبنان، دار المناهل، ط٢، ١٩٩٠، ص ٣٠.

٤٩) لسان العرب، مادة وتد.

٥٠) المنهاج، ص ٢٥٢-٢٥٣.

٥١) المنهاج، ص ٢٣٦.

٥٢) المنهاج، ص ٢٥٢.

٥٣) المنهاج، ص ٢٥٢.

٥٤) لسان العرب، مادة كسر.

٥٥) المنهاج، ص ٢٥٠.

٥٦) المنهاج، ص ٤١٥.

٥٧) لسان العرب، مادة جزل.

٥٨) الجمحي ،ابن سلام (ت٢٣٢هـ) طبقات فحول الشعراء، تح،محمود شاكر،وزارة الثقافة،دمشق،١٩٩٥م ج١، ص ٥٦.

٥٩) الجاحظ ،عمر بن بحر(ت٢٥٥هـ) البيان والتبيين، تح ،عبد السلام هارون دار الفكر ،بيروت،١٩٦٨/ج١، ص ١٤٤.

٦٠) نفسه، ص ١٤٥.

٦١) قواعد الشعر، ص ٥٩.

٦٢) المنهاج، ص ٢٢٥.

٦٣) لسان العرب، مادة لغز.

٦٤) البيان والتبيين، ج٢، ص ١٤٧.

(٦٥- ٢) المنهاج، ص ١٨٧، وانظر مصطلح: (غموض)، (اغماض)، (وتعمية).

٦٧) لسان العرب، مادة قصص.

٦٨) قواعد الشعر، ص ٢٨.

٦٩) قواعد الشعر، ص ٣٠.

٧٠)المنهاج، ص ٦٢.

٧١) المنهاج، ص ٢٩٢.

٧٢) لسان العرب، مادة سمط.

٧٣) الظبي،ابن المفضل(ت١٦٨هـ) المفضليات،دار المعارف ،القاهرة،١٩٧٩م ص ٣٩٠.

٧٤)القرشي،أبي زيد محمد بن الخطاب(ت١٧٠هـ) جمهرة أشعار العرب، تح، عمر الطباع ،دار بيروت ١٩٩٥م ،ج١، ص ٩٧.

٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٩٨.

٧٦) المنهاج، ص ٢٧.

٧٧) تاريخ النقد الأدبي، ص ٤٧.

٧٨) المرجع نفسه، ص ٦٦٠.

٧٩) القيرواني، ابن رشيق :العمدة في صناعة الشعر تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مصر، ١٩٨٢، ص١ /١٦٣

٨٠) قواعد الشعر، ٧٩،٧٥،٧١،٦٧

٨١) وليد قصاب، قضية عمود الشعر العربي في النقد العربي، ط٢، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٠، ص ١٣٩.

٨٢) عبد الله سالم المعطاني، أثر البيئة في المصطلح النقدي القديم، ضمن كتاب "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٠، ص ٢٣٨.

٨٣) مدخل المنهاج، ص ٥٤.

٨٤) عادل فريحات، إضاءات في النقد الأدبي، دمشق، دار أسامة، ١٩٨٥، ص ٩٣.

٨٥) المنهاج، ص ٥٤.

٨٦) تاريخ النقد، ص ٥٤٢.

٨٧) ينظر المصطلح النقدي.

٨٨) المنهاج، ص ١٠، ص ٢٦.

٨٩) المنهاج، ص ٢٦.

٩٠) مفهوم الشعر، ص ١٣٧.

٩١) إحسان عباس، ص ٢٣.

٩٢) المنهاج، ص٤٨.

٩٣) المنهاج، ص ١٤٣.

٩٤) المنهاج، ص ٢٥٢.

٩٥) المنهاج، ص ٢٥٠-٢٥٦.